



على قدر اللحاف الإيراني تنكمش أرجل بشار الأسد في سورية، وحسابات إيران بوصفها المشغل الأساس للمنظومة "المحور" التي يعمل الأسد في إطارها، هي التي تحدد الأولويات والخيارات والبدائل، تبعاً لرؤى وتقييرات معينة تخضع، في جانب كبير منها، إلى حسابات التكلفة من جهة، والحاصل الاستراتيجي المحقق من جهة ثانية.

إلى الخطة "ب" در، هكذا أعلن الأسد بكل وضوح، وبذلك يطرح مادة تفاوضية على السوريين والقوى الإقليمية والدولية، مفادها بأن جوهر حل الأزمة التفاوض على دولتين: دولته بحدودها التي يقاتل فيها جيشه وقواته "المحور الإيراني"، وسورية الخارجية عن تلك الحدود، مع شرط آخر، هو أن دولته ستكون صافية لجهة العرق والانتماء، بعد أن وضع شرطاً واضحاً للتملك والإقامة فيها "من يحميها"، بما يجعل الباب واسعاً لإخراج مكونات منها وإدخال أخرى، ذلك أنّ معايير استيفاء هذا الشرط خاضعة لتفسير وتقدير خاص بالأسد.

والملاحظ على هامش هذا التشكيل الجديد أنّ الأسد لم يظلم نفسه في هذه القسمة، بعد أن قصّ لنفسه أفضل ما في سورية، البؤرة أو القلب الاستراتيجي، ليس لسورية وحسب، بل وللمنطقة برمتها، أخذ زهرة البلاد وثمرتها الاستراتيجية، طرق المواصلات والجبال الحاكمة والموانئ ومصادر المياه والأنهار ودمشق برمزيتها ومكانتها. باختصار، كل ما يحتاجه المشروع الإيراني من مستلزمات استراتيجية ومساحات جغرافية مفيدة للاستيطان، وقدف كل ما هو عشوائي وإشكالي خارج حدود اللحاف الإيراني.

ليس مصادفة أن يأتي خطاب الأسد، بعد أيام من الاتفاق النووي الإيراني، وما تضمنه من غموض، عمدت إيران إلى تعوييه حول التفاهمات السرية عن دورها الإقليمي، وكأنما أراد الأسد الإيحاء بأنه يكشف عن أولى تلك التفاهمات، وهي توسيع إيران إعادة ترتيب الإقليم، وفق مقتضيات مصالحها الاستراتيجية ورؤاها، وتقرير شكل وحدود مناطق نفوذها، قبل أن يُصار إلى إعلام الآخرين بها خرائط نهائية، والمؤكد أنّ طهران هي من دفع الأسد إلى هذا الطرح، واختارت توقيته بعناية، بما يفيدها في سبر ردود الغرب واستثمار مناخ الهرولة الغربية الطامحة إلى الحصول على حصة من نثريات الاستثمار فيها، واعتقادها أن إدارة الرئيس الأميركي، باراك أوباما، لا تزال تحت تأثير حالة النشوة من نخب الاتفاق النووي، ولن تكون واعية للتغيرات التي ستجريها إيران في سورية تحديداً، أو أقله ستكون محروجة في مراجعتها بالأمر.

لكن، للحقيقة، لم يكن ما أعلنه الأسد مفاجئاً إلا في الإعلان عنه وحسب، أما على مستوى الواقع، فقد كانت هناك هندسة ديمografية وجغرافية تجري على قدم وساق، وفي ترتيب علني وشفاف، قام به المحور الإيراني في سورية. أخذ في الشكل

جملة من الأعمال المتفرقة، لكنّها تقع ضمن استراتيجية واحدة، جرت بهدوء، وتنطبق عليها كل مواصفات الاستراتيجية، من تحديد للأهداف وبلورة للموارد وتخطيط للوصول إلى تلك الأهداف، وللتذكير بمضامين تلك الخطة:

- في بواكيـر الحـدث السـوري، قـام نـظام الأـسد بـعمليـات تـطهـير دـيمـغـرـافـيـ، شـملـت: الـلاـذـقـيـة وـريـفـهـا، حـمـص وـريـفـهـا الغـربـيـ، رـيفـ حـمـة الغـربـيـ، دـمـشـق وـأـريـافـهـا الجنـوبـيـة وـالـغـربـيـة.

- رـكـزـتـ العمـليـاتـ العـسـكـرـيـةـ لـنـظـامـ وجـهـوـدـهـ حولـ هـذـهـ المـنـاطـقـ، وـجـرـتـ صـنـاعـةـ أـنـسـاقـ دـفـاعـيـةـ مـمـيـزةـ، مـنـ دـيرـ العـدـسـ جـنـوـبـاـ عـبـرـ خـطـ مـتـواـصـلـ يـمـرـ بـالـقـنـيـطـرـةـ وـالـزـيـدـانـيـ وـالـقـلـمـونـ الغـربـيـ، وـصـوـلـاـ إـلـىـ القـصـيرـ فيـ رـيفـ حـمـصـ الغـربـيـ.

- إـجـيـارـ سـكـانـ العـاصـمـةـ عـلـىـ بـيـعـ أـمـلاـكـهـمـ فـيـ قـلـبـ دـمـشـقـ الـقـدـيمـةـ، وـإـجـرـاءـ عـمـلـيـاتـ تـنـظـيمـ لـمـنـاطـقـ وـاسـعـةـ فـيـ دـمـشـقـ، شـملـتـ اـقـتـلـاعـ سـكـانـهاـ (ـكـفـرـ سـوـسـةـ وـالـمـزـةـ)، فـيـمـاـ بـدـاـ أـنـهـ عـمـلـيـةـ تـغـيـيرـ دـيمـغـرـافـيـ فـيـ وـضـحـ النـهـارـ، وـكـانـ غـرـيبـاـ أـنـ تـقـومـ حـكـومـةـ لـاـ تـسـتـطـعـ تـأـمـيـنـ الـخـبـزـ لـمـوـاطـنـيهـ بـعـمـلـيـاتـ تـنـظـيمـ عـقـارـيـةـ؛ـ وـقـبـلـ ذـلـكـ، أـقـدـمـ النـظـامـ عـلـىـ حـرـقـ السـجـلـ العـقـارـيـ لـمـديـنـةـ حـمـصـ.

بوـشـرـ فـيـ تـنـفـيـذـ كـلـ تـلـكـ الإـجـرـاءـاتـ، مـعـ بـدـايـةـ الـعـامـ 2012ـ، حـينـ لـمـ يـكـنـ قدـ مـضـىـ عـلـىـ الثـورـةـ سـوـىـ بـضـعـةـ شـهـورـ، مـاـ يـعـنـيـ أـنـ النـظـامـ خـطـطـ باـكـراـ لـهـذـاـ حلـ، بلـ أـكـيـدـ أـنـهـ أـدـرـجـهـ فـيـ إـطـارـ سـيـنـارـيـوهـاتـ الـخـروـجـ مـنـ الـأـزـمـةـ، فـيـ وـقـتـ مـنـ الـمـفـتـرـضـ أـنـ نـظـامـ يـدـعـيـ الـو~طنـيـةـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـبـحـثـ عـنـ حـلـوـلـ تـحـافـظـ عـلـىـ وـحدـةـ الـبـلـدـ، وـتـضـمـنـ سـلـامـةـ نـسـيـجـهـ الـاجـتمـاعـيـ، وـإـدـراكـ

مـوـقـعـهـاـ وـظـرـوفـهـاـ الـإـقـلـيمـيـةـ، بـمـاـ يـغـلـقـ الـبـابـ أـمـامـ أـيـ مـحاـوـلـةـ لـلـعـبـثـ بـوـحـدـتـهاـ الـجـغرـافـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ.

وـفـيـ إـطـارـ هـذـاـ المـخـطـطـ، عـمـلـ نـظـامـ الأـسدـ عـلـىـ تـحـطـيمـ بـقـاـيـاـ سـوـرـيـةـ التـيـ سـيـتـخـلـيـ عـنـهـاـ، وـالـتـيـ يـبـدـوـ، أـيـضاـ، أـنـهـ حـدـدـهـاـ باـكـراـ وـفـقـ تـقـدـيرـاتـهـ، كـمـاـ فـعـلـ فـيـ حـلـبـ وـدـيرـ الزـورـ وـدـرـعاـ، حـيـثـ دـمـرـ بـنـاهـاـ التـحتـيـةـ وـالـفـوـقـيـةـ، وـأـحـالـهـاـ إـلـىـ مـنـاطـقـ تـسـتـحـيلـ الـحـيـاةـ فـيـهـاـ، وـحـتـىـ اـسـتـمـرـارـ وـجـودـهـ فـيـهـاـ، كـانـتـ لـهـ أـهـدـافـ عـسـكـرـيـةـ وـتـفـاوـضـيـةـ، فـيـ الـلـوـقـتـ نـفـسـهـ:ـ تـحـوـيـلـهـاـ جـدـرانـ صـدـ يـسـتـنـزـفـ عـبـرـهـاـ طـاقـةـ الـمـقـاتـلـينـ، وـهـامـشـ مـنـاـوـرـةـ مـيـدانـيـ يـفـصـلـ الـمـقـاتـلـينـ عـنـ دـوـلـتـهـ، وـلـكـيـ يـقـاـيـضـ بـهـاـ عـلـىـ أـرـاضـيـ دـوـلـتـهـ الـمـقـبـلـةـ. وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ، بـهـدـفـ تـحـوـيـلـهـاـ إـلـىـ مـشـكـلـاتـ أـمـنـيـةـ دـائـمـةـ لـدـوـلـ الـجـوـارـ الـمـتـعـاطـفـةـ معـ الـثـورـةـ (ـتـرـكـيـاـ وـالـأـرـدنـ)، وـذـلـكـ نـتـيـجـةـ زـرـاعـةـ كـلـ عـنـاصـرـ الـفـوـضـيـ بـدـاخـلـهـاـ.

لـيـسـ سـرـاـ أـنـ نـظـامـ الأـسدـ فـاـقـدـ كـلـ مـقـومـاتـ السـيـادـةـ الـو~طنـيـةـ، حـصـلـ ذـلـكـ بـكـامـلـ إـرـادـتـهـ، حـيـنـماـ أـدـخـلـ إـلـيـرـانـيـ فـيـ كـلـ مـفـاـصـلـ نـظـامـهـ الـأـمـنـيـ وـالـسـيـاسـيـ، مـقـابـلـ حـصـولـهـ عـلـىـ الدـعـمـ الـمـطلـقـ لـقـمـعـ مـطـالـبـ شـعـبـهـ بـالـكـرـامـةـ وـالـحـرـيـةـ. وـهـوـ الـيـوـمـ مـجـرـدـ حـاـكـمـ مـحـلـيـ، يـنـطـقـ بـمـاـ تـرـيـدـهـ إـلـيـرـانـ التـيـ تـسـتـعـمـلـهـ فـيـ إـنجـازـ أـخـطـرـ مـهمـةـ فـيـ قـلـبـ سـوـرـيـةـ، وـفـيـ مـواجهـةـ الـأـمـنـ الـقـومـيـ الـعـربـيـ، بـعـدـ أـنـهـ اـقـتـصـادـهـاـ وـدـيمـغـرـافـيـتهاـ، وـضـمـنـ إـخـرـاجـهـاـ مـنـ سـاحـاتـ الـفـعـلـ الـإـقـلـيمـيـ.ـ هـاـ هوـ الـيـوـمـ يـمـزـقـهـ جـغـرـافـيـاـ، وـيـسـتـعـمـلـ جـنـسيـتـهـ لـتـبـيـضـ مـرـتـزـقـةـ الـأـرـضـ، وـيـقـذـفـ مـلـايـنـهـاـ إـلـىـ عـرـاءـ الـلـانـتـماءـ.

العربي الجديد

المصادر: